دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	مشروع احتلال موريتانيا
المصدر:	مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة نواكشوط - موريتانيا
المؤلف الرئيسي:	محمد، آدب ولد سيدا
المجلد/العدد:	ع9
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2016
الصفحات:	5 - 15
رقم MD:	754447
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	ACI, HumanIndex
مواضيع:	موريتانيا
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/754447

© 2016 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

مشروع احتلال موريتانيا

د. آدب ولد سيدا محمد– أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

قسم التاريخ والحضارة، جامعة نواكشوط – موريتانيا

المقدمة:

إن عملية احتلال البلاد الموريتانية من طرف القوات الفرنسية المتمركزة في مستعمرة السنغال المجاورة كانت ترمي من ورائها فرنسا ربط المستعمرات الفرنسية الجنوبية دول غرب إفريقيا (مالي و السنغال وساحل العاج غينيا) بمستعمراتها الشمالية (المغرب الجزائر تونس) وقد استولت الظاهرة الاستعمارية على اهتمام العديد من المؤرخين الموريتانيين إلا أنها بقيت تعاني من نقص في الدراسة رغم ما لهذه الظاهرة من دور فعال وحاسم على مجتمع افتقر السلطة المركزية منذ أفول الدولة المرابطية .

أ – كبولاني و المشروع الاستعماري:

– التعريف بكبولاني:

ولد كزافيه كبولاني مهندس المشروع الاستعماري في موريتانيا في فاتح فبراير 1866م بكورسيكا (جزيرة في البحر الأبيض المتوسط تابعة لفرنسا) و ذلك قبل أن ينتقل مع أفراد أسرته للاستيطان بالجزائر وسكن بها و التي زاول فيها تعليمه ممّا مكّنه من إتقان اللغة العربية و الاطلاع على العلوم الإسلامية، وكان فضوليا لاستجلاء ماغمض من العلوم الشيء الذي جعله يعكف على دراسة الدين الإسلامي والتأثير الروحي لبعض المذاهب الدينية ، بل إنه أقدم على استشارة العرافين وقراء الكف[1]، و قد بدأ حياته المهنية ككاتب مراسل بمقاطعة قسنطينة بالجزائر قبل أن يعيّن بعد ذلك كاتبا لبلدية واد الشرق بداية من 15 ابريل 1885م، و ذلك قبل أن يتم إلحاقه بالحكومة العامة لمنطقة غرب إفريقيا بداية من 15 ديسمبر 1895م حيث عيّن إداريا مساعدا سنة 1896م.

و قد استطاع كبولاني خلال فترة تربصه في المكاتب العربية بالجزائر إنجاز كتاب حول "الطرق الصوفية الإسلامية" و ذلك بالتعاون مع صديقه أكتار ديبون (Octar Debont) و قد مكنته هذه الدراسة من تعميق و إثراء معرفته بالإسلام و طرقه و بالتالي تبلور واتضاح أهم و أنجع الطرق التي يجب أن تتعامل بها الإدارة الاستعمارية الفرنسية مع هؤلاء المسلمين في مختلف مستعمراتها، فطالب بإنشاء مصلحة خاصة بشؤون المسلمين تكون مهمتها الأساسية مركزة المعلومات المتعلقة بالإسلام و إرشاد الحكومة العامة والمصالح المعنية و توجيهها في كل ما يتعلق بالسياسة الفرنسية اتجاه الأراضي

الإسلامية و المسلمين، وبخصوص التعليمات المتعلقة بالتعامل مع الطرق الصوفية في البلاد الموريتانية و القائمين بشكل عام على التعليم (الزوايا) فقد اقترح كبولاني في العمل على احتواء هذه الفئة و كسبها إلى الجانب الفرنسي، و هو بالفعل ما قام به كبلاني حين بدأ تنفيذ مشروعه.

و كانت أول فرصة أتيحت لكبلاني لوضع آرائه و مقترحاته محل التجربة حين كلف من طرف والي السودان الجنرال ترينتيان (Trentinian) في نوفمبر 1898م بمهمة في منطقة السودان الغربي و الساحل الجنوبي لموريتانيا ، و ذلك لأجل الدخول في مفاوضات مع الحوض وأزواد الموجودة في هذه المنطقة من أجل إقناعها بقبول الحماية الفرنسية ، و هو ما حصل بالفعل حيث تمكن كبولاني من تحقيق ذلك حين قبلت مشظوف و أولاد علوش في الحوض الشرقي (التابع وقتها للسودان الفرنسي) بالدخول تحت الحماية الفرنسية إضافة إلى القبائل التي تقطن منطقة أزواد، و بعد عودة كبلاني من مهمته هذه أعد تقريرا مفصلا ضمنه الكثير من المعلومات المتعلقة بالمناطق التي تجول فيها ونمط حياة سكانها ، كما أشار في هذا التقرير إلى الدور الهام الذي يلعبه المرابط الكبير الشيخ ماء العينين الموجود في الساقية الحمراء[2]، و إلى المكانة الإستراتيجية للساقية الحمراء التي يقيم بها هذا الشيخ، كما طالب كبولاني في تقريره هذا بتوحيد المناطق التي تقطنها القبائل البيضانية و الطوارق و إخضاعها للسيطرة الفرنسية تحت اسم "موريتانيا الغربية" و قد تبنت وزارة المستعمرات الفرنسية هذا الاقتراح حيث أصدرت قرار في 27 ديسمبر 1899م ينظم المناطق الممتدة من الضفة اليمنى لنهر السنغال و الأماكن الواقعة بين خاي و تيمبكتو إلى غاية الطرفاية (Cop Jubu) غربا، و شمالا إلى غاية الحدود الجزائرية، و ذلك تحت اسم "موريتانيا الغربية"[3].

ب- معارضة المشروع:

إنّ قرار وزارة المستعمرات لم يكن كافيا لتنفيذ مشروع كبلاني دون أن يواجه معارضة شديدة سواء على المستوى الإداري لحكومة منطقة غرب إفريقيا بل و حتى على المستوى الوزاري في فرنسا إضافة طبعا إلى معارضة أصحاب المصالح التجارية في سان لويس، وقد اصطدم بمعارضة شديدة من طرف صنّاع القرار في باريس لأسباب استراتيجيه، وتحت ضغوط خارجية، ذلك أن امتداده نحو الشرق والشمال سيدخل قبائل محاربة شديدة البأس[4]، وسيعمل على خلق كيان عصي على الفرنسيين فيما لو أرادوا استخدام القوة لبسط سيطرتهم عليه، ومن جانبها كانت اسبانيا قد خططت لبسط نفوذها على إقليم الصحراء ولم تكن فرنسا التي تتعرض لمنافسة من طرف بريطانيا قادرة ولا مستعدة لمجابهة المطامح الأسبانية، وهكذا شذّب المشروع ليلاءم المصالح والمواقف الفرنسية حيث اقتطعت أجزاء من شماله، وأخرى من شرقه لتكون فيما بعد بؤر توتر في شبه المنطقة[5]، غير أن العقبة الرئيسية التي حالت بين كبولاني وتنفيذ مشروعه في الوقت الذي أختاره ، تمثلت في موقف

وزارة الخارجية الفرنسية التي لم تعر اهتمامها لهذا المشروع لاعتبارات دبلوماسية ،حيث لم تجد في ضم موريتانيا أو احتلالها مايعادل غضب كل من بريطانيا وألمانيا واسبانيا التي كانت تطالب بحقوق في المغرب وفي مناطق غير محددة لم يكن يعرف ما إذا كانت تشتمل على موريتانيا أو جزء منها[6]، فقد أوضح وزير الخارجية الفرنسي وقتها دلكاسيه (Delcasse) أن الظرفية المعقدة التي تمر بها المنطقة لا تسمح بتنفيذ هذا المشروع خاصة إذا وضعنا في عين الاعتبار احتواء هذا المشروع لمناطق توجد في الأراضي الخاضعة للسيطرة الاسبانية، هذا فضلا عن وجود اتفاقية ثنائية بين المغرب و انجلترا موقعة منذ 13 مارس 1895م تتعلق بالسيادة الانجليزية على المراكز الموجودة بالطرفاية كما تبيّن هذه الاتفاقية سعي انجلترا إلى توطيد و توسيع نفوذها في المغرب و هو ما لا ترغب فيه فرنسا[7]، أمّا على مستوى الحكومة العامة لمنطقة غرب إفريقيا فقد عبّر الوالي العام أميل شوديه (Emil Chaudie) عن رفضه لهذا المشروع باعتباره تنظيما سابقا لأوانه و خطرا كبيرا على أمن منطقة حوض نهر السنغال، و هو نفس الرأي الذي تبناه الوالي العام بالي (Bally) الذي خلف شوديه حيث اعتبر أنّ أيّ عمل عسكري في بلاد البيضان لن تكون أية نتيجة إيجابية لصالح فرنسا، خاصة إذ انطلقنا من اعتبار أنّ منطقة موريتانيا منطقة فقيرة من الناحية الاقتصادية إضافة إلى صعوبة إخضاع القبائل البيضانية للسلطة الفرنسية مباشرة[8].

أمّا أشد المعارضين لمشروع كبلاني هذا فقد كانوا من التجار أصحاب المصالح التجارية مع البيضان الذين يرون أن أي تغيير من الوضع القائم ستكون له انعكاسات سلبية على مصالحهم التجارية، إلاّ أنّ ذلك لن يثني كبلاني عن الاستمرار في العمل على تنفيذ مشروعه حيث استطاع بعد لقائه لوزير الخارجية الفرنسي دلكاسيه إقناعه بقبول مبدأ المشروع على أساس إحداث بعض التغيرات على حدود المشروع المقترح من الناحية الشمالية حيث تتوقف عند (Baie du Levrier) بانتظار الوصول إلى اتفاقية مع السلطات الاسبانية، كما تمكن كبلاني خلال إقامته في فرنسا من إقناع رئيس المجلس الأعلى فالدك روسو (Waldek Rousseau) بمشروعه فقام هذا الأخير بإنشاء لجنة وزارة تضم إلى جانبي وزارة المستعمرات و وزارة الخارجية و وزارة الداخلية في 6 يوليو 1901م، حيث عهد إليها دراسة الوضعية العامة بكل من الجزائر و إفريقيا الغربية و النظر في إمكانية الربط بينهما و في 3 مارس 1902م قدمت هذه اللجنة تقريرها الذي صادقت فيه على إخضاع المناطق الممتدة من قاو إلى المحيط الأطلسي باستثناء المناطق الخاضعة للسلطة الاسبانية وبعد موافقة اللجنة الوزارية تم تعيين كبولاني مفوضا عاما للحكومة الفرنسية مكلفا بتنظيم بلاد البيضان و ليتوجه بعد ذلك إلى مستعمرة السنغال لإعداد العدة لتنفيذ مشروعه[9]، و قد تزامنت بداية كبولاني في مهامه الجديدة مع اشتداد حدة الصّراع في البلاد الموريتانية هذا الصراع الذي شمل كافة المجموعات و الفئات و الاتجاهات الطرقية في البلاد، فإلى جانب الحروب و الصراعات القائمة بين مختلف القبائل و الأفخاذ المحاربة، يمكننا أن

نضيف زيادة الصراع بين الفئة المحاربة و الفئة الزاوية[10] ، نتيجة تضاعف عمليات النهب و السلب التي تعرض لها القبائل الزاوية بفعل انعدام الأمن الناتج عن الصراعات القائمة بين القبائل المحاربة و عدم وجود أمير قوي بإمكانه فرض سلطته و توفير الأمن لرعاياه، هذا فضلا عن انقسام البلاد من حيث النفوذ الروحي للمشايخ الصوفي

– منطقة نفوذ الشيخ سيديا بابا و التي تشمل الترارزة و لبراكنة و أجزاء من تكانت.

– منطقة نفوذ الشيخ ماء العينين و تمتد على المناطق الشمالية و تخوم المغرب.

– منطقة نفوذ الشيخ سعد بوه: على الرغم من محدودية نفوذه الروحي في بلاد البيضان، إلا أنّ أتباعه ينتشرون بكثرة في مناطق السود الجنوبية ، و قد استطاع كبولاني الاستفادة من عناصر التناقض و الصراع الموجودة في المجتمع البيضاني و خاصة في منطقة الترارزة و ذلك لمباشرة تنفيذ المشروع الرامي إلى جر مختلف العناصر المتصارعة و دفعها الدخول تحت الحماية الفرنسية ، وكان أول إنجاز حققه كبولاني في هذا الإطار تمكنه من دفع الأمير أحمد سالم إلى توقيع اتفاقية 15 ديسمبر 1902م قبل بموجبها مبدأ الحماية الفرنسية على منطقة الترارزة و إلغاء الإتاوات المدفوعة تقليديا للأمير من طرف الشركات التجارية الفرنسية و ذلك مقابل تعهد السلطات الفرنسية بالاعتراف به أميرا على منطقة الترارزة و تقديم الدعم و المساعدة له، هذا فضلا عن تمكن كبولاني بفضل حنكته و معرفته العميقة بالمجتمع البيضاني الحصول على مباركة الزعامات الدينية في المنطقة (الشيخ سيديا بابا و الشيخ سعد بوه) لهذه الاتفاقية التي تمثل البداية الفعلية للسيطرة الفرنسية على البلاد الموريتانية.

جـــ– السيطرة السلمية:

و هكذا شرع كبولاني بعد حصوله على موافقة الأمير أحمد سالم بتوقيع اتفاقية 15 ديسمبر 1902م في استقطاب الفئات المتضررة في منطقة الترارزة حيث بدأ مع بداية سنة 1903م في استقبال أعيان المنطقة الراغبين في قبول مبدأ الحماية فضلا عن القبائل الزاوية التي وجدت في وضع الحماية الجديد فرصة لخلاصها من المعاناة الشديدة التي كانت تعانيها في الأنفس و الممتلكات، هذا فضلا عن تمكن كبولاني من الحصول على قبول أولاد دامان (أنصار سيد ولد محمد فال منافس الأمير أحمد سالم) الدخول تحت الحماية الفرنسية، و لم يكن كبولاني يجهل أنّ الظروف الأمنية المتردية في منطقة الترارزة كانت السبب الرئيسي في تمكينه من إخضاعها بهذه السهولة، لذلك قام فورا بإنشاء مجموعة من المراكز الأمنية و التموينية حيث أمر النقيب دلابلان (Delaplane) بالاستقرار بالقرب من سهوت الماء في الوقت الذي قام فيه كبولاني رفقة كل من الضابط فيلي (Feuillé) و أمين الشؤون الأهلية مشيل أنجاي (Michel Angeli) و المترجم ولد المقداد، بإنشاء مركز أمني في سهوت الماء أشرف فيه كبولاني على استقبال العديد من أعيان المنطقة الراغبين في قبول مبدأ الحماية الفرنسية، و ذلك

قبل أن يتوجه كبولاني إلى أخروفه و ينشأ فيها مركزا أمنيا (و هو المركز الذي سيقوم فيه سيد ولد محمد فال بتوقيع اتفاقية 5 فبراير 1903م، التي قبل بموجبها الحماية الفرنسية)، و بعد ذلك كلف كبولاني ا فرير جان (Frère Jean) بإنشاء مركز نواكشوط ، ولم يكتف كبولاني بالتركيز فقط على استقطاب مختلف الأطراف المتصارعة في الفئة المحاربة بل عرف كيف يكسب من وراء علاقاته الطيبة مع أقطاب المشايخ الدينيين في المنطقة الكثير، حيث استطاع أن يحصل من الشيخ سيديا بابا على فتوى شرعية لم يختصر فيها هذا الزعيم الروحي على إباحة قبول مبدأ الحماية في المنطقة، بل ذهب إلى أبعد من ذلك حيث طالب بشكر الدولة الفرنسية على فعلتها هذه: «أمّا بعد فإن هذه الإفريقية الغربية لم تزل منذ قرون كثيرة بلادا سائبة يتقاتل أهلها و يتظالمون و يفقدون مصالحا عظيما، و مرافق كثيرة، إلى أن غلبت عليها الدولة الفرنساوية فحققت الأمان و حفظت الأموال وأصلحت الأحوال، فوجب شكر الله تعالى على هذه النعمة العظيمة، ثم شكر هذه الدولة المصلحة.... وأردت بهذه الرسالة التنبيه إلى أمور منها[11]:

ما جعل الله في السلطان من مصالح، و منها أنه إذا لم يكن العدل إلا بالسلطان المخالف في الدين المتغلب بشوكته، فالدخول في طاعته أولى و منها أنه لا تجب الهجرة عنه عند عدم التعرض للدين كما هو الواقع و لا سيما مع عدم الإمكان، و عدم وجود أراضي لائقة يقام فيها الدين كما ينبغي لا سبيل للدولة المسيحية عليها كما هو الواقع، و منها ما ورد في مولاه المخالف في الدين و مواد ته و الركون إليه، إنّما هو في الدين و منه أن إعانة بعض المخالفين في الدين على بعضهم أو على المحاربين المفسدين في الأراضي لا بأس بها إذ طلبوا ذلك لا سيما عند الحاجة إليها، ثم حاجة العباد إلى وجود سلطان في الأرض .... و قد قال علي ابن أبي طالب رضي الله عنه: أمران لا يصلح أحدهما بالتفرد و لا يصلح الآخر بالمشاركة و هما الملك و الرأي. فكما لا يستقيم الملك بالشركة إلا يستقيم الرأي بالانفراد...»[12]. في نفس الوقت الذي أصدر فيه الزعيم الروحي الثاني في المنطقة الشيخ سعد بوه فتواه التي لا تقل دعما لكبلاني عن سابقتها حيث لم يكتف هذا الزعيم بتشريع العملية بل أنه حذّر من محاربة فرنسا و التعرض لها و لمصالحها و ذلك في رسالة موجهة إلى السكان عنوانها "رسالة النصيحة العامة و الخاصة في التحذير من محاربة افرانصة"[13].

و قد مثلت مواقف رجال الدين في منطقة الترارزة من العملية الاستعمارية حالة استثنائية نريد هنا أن نشير أنها لم تكن شاملة لجميع مناطق البلاد كما سيتضح لنا من خلال مواقف مختلف رجالات الدين في بقية مناطق البلاد، سواء تعلق الأمر بقبول مبدأ السيطرة الفرنسية على البلاد أو حتى قبول مبدأ التعامل مع مختلف الأجهزة و الأنظمة التي تولدت عن الواقع الاستعماري الجديد، و في هذا السياق فإن رجال الدين في الترارزة و خاصة الشيخ سيد بابا قد انطلق من مبدأ «أخف الضررين» على اعتبار أن المنطقة التي كان يسكن بها "الكبلة" كانت تعرف سلسلة من الأزمات السلبية المتتالية

صاحبتها موجات من العنف و الاغتيالات استمرت طيلة النصف الثاني من القرن 19م، و حتى مجيء الفرنسيين مع مطلع هذا القرن، وكان لهذه الأزمات الأثر البالغ على الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية لسكان تلك المنطقة.

و يرجع الشيخ سيديا بابا هذه الفوضى إلى غياب السلطة المركزية، وانتشار ظاهرة السيبة، و بالتالي فقد اعتبر بأن الفرنسيين هم البديل الوحيد لسد هذه الثغرة ، بضمان الأمن و إشاعة العدالة بين الناس خاصة وأن هؤلاء الأخيرين بتمركزهم منذ نهاية القرن 19م في مركز سان لويس الذي يعتبر بحق البوابة الرئيسية لمنطقة الترارزة، أصبحوا يتحكمون إلى حد كبير في منطقة الجنوب الغربي الموريتاني بكاملها[14].

و عكسا لما هو الحال بالنسبة للشيخ ماء العينين الذي ناهض الاستعمار الفرنسي الذي كان يسكن في المنطقة الشمالية و التي كانت تعرف نوعا من الاستقرار النسبي، و قد كان الشيخ ماء العينيين موضع تقدير واحترام من لدن سلاطين المغرب الذين كانوا ينظرون إليه باعتباره قيّما على هذه الجهة، و كانوا يقدّمون له الدعم المادي و المعنوي[15]، بينما كان يحظى بتأثير قوي على قبائل الشمال الموريتاني ، و دون أن ندخل في تفاصيل أكثر في خلفيات واستشكالات الأبعاد الفقهية من فتاوى الشيخ سيد بابا التي أشرنا إليها من قبل وفتاوى الشيخ ماء العينين المتعلقة بالاستعمار[16]، فإن كبولاني استطاع العودة إلى مدينة سان لويس السنغالية بعد أن استطاع أن يفرض الحماية الفرنسية على منطقة الترارزة دون أن يكلفه ذلك إطلاق رصاصة واحدة و هو ما أعطاه دفعا و حماسا لاستكمال تنفيذ مشروعه خاصة بعد حصوله على قرار من الوالي العام لمنطقة غرب إفريقيا أصبحت بموجبه منطقة الترارزة تحت الحماية المباشرة للسلطة الفرنسية و ذلك بتاريخ 12 مايو 1903م، و هذا القرار الذي كلف بموجبه كبولاني بالإنابة العامة للحكومة الفرنسية في منطقة الترارزة و القيام بمهام أساسية مثل مراقبة القضاء وتعيين القضاة و جمع الضرائب و إلغاء الإتاوات و فرض الضرائب، و بعد أسبوع واحد من صدور هذا القرار و بالتحديد في 19 مايو 1903م استطاع كبولاني إقناع أمير منطقة لبراكنة أحمد ولد سيد أعل رفقة مجموعة من رؤساء الأفخاذ الأميرية كأولاد نغماش و أولاد عايد وأولاد أعل بقبول مبدأ الحماية الفرنسية على منطقتهم، لكن الظروف الأمنية المتردية في منطقة لبراكنة بدورها إضافة إلى الضغوط الممارسة من طرف أمير تكانت بكار ولد أسويد أحمد دفعت بالأمير أحمد ولد سيد أعل و جماعته إلى التراجع عن هذه الاتفاقية، و بالفعل بدأت مناطق الترارزة و لبراكنة تشهد موجة من عمليات النهب و السلب كان المتضرر منها بالدرجة الأولى القبائل الموالية للسلطة الفرنسية[17] حيث عمدت المجموعات المناوئة للوجود الفرنسي إلى الضغط على تلك القبائل من أجل إرغامها على الخروج من الحماية الفرنسية و دفعها إلى الوقوف في مواجهة القوات الفرنسية، و قد شهدت سنة 1903م نهب ما قيمته 60 ألف فرنك من الذرة واختطاف ما يناهز المائة من العبيد إضافة إلى قتل

ثلاثين رجلا و نهب ثلاث قوارب تجوب النهر. و بالفعل كانت لهذه الحملة التي أصبحت تواجهها القبائل الموالية للسلطة الفرنسية الأثر السلبي على سياسة كبولاني التي أقامها على أساس توفير الأمن و الحماية للمجموعات الموالية و هو بالفعل ما عبرت عنه بعض القبائل حيث طالبت كبولاني بالالتزام بتعهداته و توفير الأمن لهم و لممتلكاتهم و بالفعل توجه كبولاني إلى منطقة لبراكنة قصد إخضاعها و القضاء على المتسببين في هذا الوضع، و قد انطلق من مركز بوكي على رأس قوة تتشكل من ثلاث فصائل من الفرسان و فصل من القناصة السنغاليين و مفرزة من حرس الحدود بالإضافة إلى قسم من المدفعية و قوم من التكاريز، و توضح تشكيلة هذه القوات عزم كبولاني على إخضاع منطقة لبراكنة والقضاء على العناصر التي تتخذ من المنطقة قاعدة للهجوم على القبائل الموالية و نهبها، هذا فضلا عن عزم كبولاني على استكمال خط المراكز التي من شأنها أن توفر الأمن للمناطق الجنوبية بشمامه، حيث قام فور وصوله إلى المنطقة بإنشاء مركز تمويني ببوكي و مركزين أمنيين الأول في مال و الآخر بميت ، و بطبيعة الحال حاولت القوات المحلية المناوئة للوجود الفرنسي عرقلة تقدم قوات كبولاني حيث واجهت هذه القوات في كل من ألاق و شكار و ميت[18] التي جابه فيها الأمير بكار بن أسويد أحمد بنفسه القوات الفرنسية التي استطاعت على الرغم من ذلك تحقيق الانتصار تلوى الآخر ممّا سهّل مهمّة كبولاني في إحكام سيطرته العسكرية على المنطقة من جهة و إغراء القبائل المتضررة من الواقع الأمني بإعلان قبولها طواعية الدخول تحت الحماية الفرنسية، هذا فضلا عن تمكن كبولاني من تفكيك التحالف البر كني حول الأمير حيث استطاع الحصول على كسب ود الفرع الأكبر من الأسرة الأميرية "أولاد عبد الله" و قام بتعيين سيد أعلي أميرا جديدا على منطقة لبراكنة خلقا للأمير أحمدو الذي هاجر المنطقة ، و لتوطيد و تثبيت السيطرة في المنطقة أمر كبولاني بدعم المراكز الموجودة حيث أنشأ كلا من مراكز أمبود في 9 مايو 1904م و مركز بياخ و مركز ألاق، كما قام بتنظيم المنطقة و تقسيمها إلى ثلاثة أقاليم:

- إقليم لبراكنة و يضم ألاك وأ مويت.
- إقليم مال و يضم مال وميت.
- إقليم كوركل الذي يضم أمبود.

و باكتمال خط المراكز "المذرذرة، سهوت الماء، الركبة، و نواكشوط" اكتملت السيطرة الفرنسية على مناطق الترارزة و لبراكنة، و على الرغم من كل هذه الانجازات فقد ظلت السيطرة الفرنسية على المناطق الجنوبية غير كافية لتحقيق الأمن و الاستقرار ذلك أنه لما ظلت مناطق تكانت و آدرار خارجة عن السيطرة الفرنسية و ملاذا لكل رافض لهيمنة الإدارة الفرنسية على البلاد فإن النفوذ الفرنسي الفعلي على البلاد لن يكتمل و هو ما دفع بالوالي العام لمنطقة غرب إفريقيا إلى مطالبة

كبولاني بمباشرة العمل على تمكين السيطرة الفرنسية على هذه المناطق[19]، لقد أدرك كبولاني منذ زيارته الأولى للبلاد الموريتانية سنة 1899م أنّ من يتمكن من السيطرة على مرتفعات تكانت و آدرار بإمكانه أن يخضع البلاد لسيطرته، فمرتفعات تكانت و آدرار على الرغم من ارتفاعها النسبي (600م) تتميّز بوعورة مسالكها و صعوبة الوصول إليها فضلا عن اعتبارها ملجأ للخارجين عن الحماية الفرنسية هذا إذا أضفنا إليه الصبغة الدينية التي استطاع بكاربن أسويد أحمد أن يوظفها على عملية المقاومة ضد السيطرة الفرنسية على البلاد الموريتانية حيث قام بهذا الصدد بتشكيل وفد قبلي يضم اثنين و عشرين قبيلة حسب الخليل النحوي و هي (إدوعيش ولقلال و أهل سيد محمود تجكانت و مسومة و مشظوف و أسما سيد و أرقيبات و تكنه و أولاد أبي أسبع و أولاد ادليم و إدوعلي و أولاد أبييري و أولاد عمن والطر شان و إيدابلحسن و إيديبوسات و أولاد اللب و إيديشل و تاكاط وأهل بوحبين[20]. و توجيهه إلى مدينة أسماره مقر الشيخ ماء العينين و ذلك من أجل التوسط لهم لدى سلطان المغرب لأجل توفير الدعم العسكري لغرض وقف تقدم القوات الفرنسية و قد أشرف ابن الشيخ ماء العينين الشيخ حسنة نفسه على المشاركة في قيادة المقاومة مما ساعد في ارتفاع معنويات المقاتلين وتأكيد الطابع الجهادي الذي عمل كل من الشيخ ماء العينين و بكار ولد أسويد أحمد على إعطائه لهذه المقاومة التي بدأت حدتها و قوتها تزداد مع تقدم كبولاني في الأراضي الموريتانية و قد دفعت هذه المعطيات بالحكومة العامة لمنطقة غرب إفريقيا إلى إمداد المفوّض العام للحكومة السيد كبولاني بقوات عسكرية شملت:

- قوم من الجزائريون بلغ عددهم 120 رجلا على الإبل و الخيل.
- قوم من أولاد بسبع و بعض العناصر السود تحت قيادة ا فرير جان.
- قوم من أولاد آبيير و تجكانت مد بهم الشيخ سيديا بابا صديقه كبولاني و على الرغم من

المحاولات الجادة التي بذلتها المقاومة الوطنية لمنع وصول كبولاني و قواته إلى منطقة تكانت فقد استطاع المفوض العام السيد كبولاني الوصل إلى مدينة تجكجة و ذلك بعد دخول قواته في معارك مع عناصر المقاومة لعل أهم نتائجها تمكن النقيب افرير جان(frère jean) بعد مباغتة مخيم أمير إدوعيش صبيحة 01 ابريل 1905م في موقع "بوكادوم" واغتيال الأمير و تشتيت صفوف إدوعيش و هو الحدث الذي سيكون له صداه سلبيا على المقاومة و فور وصول كبولاني مدينة تجكجة بدأ تحركاته الدبلوماسية الرامية إلى دفع قبائل المنطقة إلى الدخول تحت الحماية الفرنسية ، على أنّ مقتل الأمير بكار ولد أسويد أحمد و إخضاع منطقة تكانت لن تقضي على المقاومة المسلحة التي أصبح القائمون عليها ينظرون إلى كبولاني على اعتباره خطرا دينيا إضافة إلى الخطر السياسي و العسكري الذي يمثله، حيث أن المتتبع لسياسة كبولاني اتجاه القوى الدينية في البلاد يدرك أن هذا الإداري الفرنسي على دراية ليس فقط بالعلوم الدينية و الثقافة الإسلامية و إنما هو على إطلاع كبير بخصوصيات هذا المجتمع الدعوي

وانقساماته الطرقية لدرجة تجعل منه خطرا يهدد خصمه و سندا قويا لحليفه. و قد شرع كبولاني منذ بداية تنفيذ مشروعه في توظيف الصراع الطرقي بين مختلف هذه الزعامات الدينية لتحقيق مشاريعه فعمل على بث روح التنافس و الشقاق بين مختلف هذه الزعامات و لا أدل على ذلك من رسالته التي وجهها إلى الشيخ سيديا حيث بدأ يعد العدة للزحف على منطقة تكانت، و هكذا تتضح خلفية اعتبار كبولاني خطرا دينيا بالنسبة للشيخ ماء العينين الذي يرى في نجاح كبولاني تهديدا لنفوذه الروحي و خطرا على مكانته في المناطق الشمالية من البلاد لذلك أصبحت تصفية هذا الإداري عملا ضروريا لوضع حد للتقدم الفرنسي في المناطق و هو ما حدث فعلا حيث تمكن سيد ولد مولاي الزين رفقة 12 رجلا من التسلل إلى معسكر كبولاني في تجكجة ليلة 12 مايو 1905م واغتيال كبولاني[21].

د- السيطرة العسكرية:

لقد أدى اغتيال كبولاني في تجكجة إلى تغيير النهج المتبع لعملية السيطرة الفرنسية على البلاد الموريتانية حيث بدأت السلطات الإدارية الفرنسية في مستعمرة السنغال المشرفة على هذه العملية التصريح بتخليها عن المنهج الدبلوماسي الذي طالما عبر كبولاني عن تمسكه به واقتناعه بأنه كفيل بتحقيق السيطرة الفرنسية على البلاد على الرغم من أنّ هذه المواجهة العسكرية بينه و بين المقاومة الوطنية و تضاعف القوات العسكرية التي وضعت تحت قيادته يوحي أن الطابع العسكري للعملية الاستعمارية الفرنسية لم يكن نتيجة لفقدان مهندس المشروع الاستعماري السلمي السيد كبولاني.

على العموم بادر موتتاني كاب دبسك (Montané Cop de Box) الذي عين خلفا لكبلاني بفك الحصار الذي تمكنت عناصر المقاومة الوطنية من فرضه على القوات الفرنسية المتمركزة في مدينة تجكجة. كما أشرف على تنظيم صفوف قواته و تأمين خطوط إمداداته و مراكزه الأمنية و قام بتقسيم البلاد في محاولة منه إلى تنظيم المناطق الموريتانية الخاضعة للنفوذ الفرنسي إلى خمس دوائر.

- دائرة الترارزة الغربية و مركزها: أخروفه.
- دائرة الترارزة الشرقية و مركزها: بوتيليميت.
- دائرة لبراكنة و مركزها: مال.
- دائرة كوركل و مركزها: كيهيدي.
- دائرة تكانت و مركزها: تجكجة[22].

كما قام بمركزة ثلاث وحدات من القناصة السنغاليين في كل من بوتيليميت بالترارزة الشرقية و تجكجة بتكانت و كيهيدي بكوركول، و ذلك لتوفير الأمن لمختلف هذه المناطق فضلا عن توفير مركز غمود على مفرزة فصيل من الفرسان في مركز الركبة، إضافة إلى عدة مئات من القوم السود و آخر من البيضان تحت قيادة المقيم الفرنسي في دائرة الترارزة الشرقية السيد تيريمو (Theremaut)[23]، في

نفس الوقت الذي عمد فيه المفوّض الجديد إلى متابعة سياسة سلفه فيما يتعلق بالعمل على دفع قبائل المناطق إلى الدخول تحت الحماية الفرنسية ، و موازاة مع هذا النشاط التكتيكي المكثف ميدانيا قامت السلطات الفرنسية بالتحرك لمنع السلطات المغربية من تقديم الدعم اللوجستيكي للمقاومة الموريتانية و قد قام (مونتاني كاب دبوسك) بالإشراف على إنشاء فصائل الهجانة في نوفمبر 1906م و ذلك في محاولة منه لأقلمة قواته المسلحة مع الواقع الجغرافي الصعب للبلاد فضلا عن ضرورة توفر القوات الفرنسية على هذه الفضائل لكي تتمكن من متابعة عناصر المقاومة المسلحة، و قد أنشأت ثلاث فصائل الأولى في بوتيليميت و الثاني في تجكجة و الثالث في المجرية، هذا في الوقت الذي عرفت فيه المناطق الموريتانية موجة من الجفاف ستجبر بعض القبائل على الاستسلام والخضوع للسلطة الفرنسية لكي يمكنّها ذلك التوجه بمواشيها إلى المناطق الجنوبية الأكثر خصوبة و الأقل تعرضا لموجة الجفاف هذه ، و هو ما حدث بالفعل مع قبيلتي كنتة و إدوعيش اللتين أعلنت الغالبية العظمى من أفرادهما الخضوع للسلطات الفرنسية، و قد حاول (مونتانيه كاب ديبوسك) الاستفادة من الوضع الجديد و ذلك من أجل استقطاب القبائل الأكثر تضررا من هذا الوضع الذي تعاني منه مناطق الشمال الموريتاني، ومع المفوض الجديد غورو الذي سيخلف مونتانيه كاب ديبوسك ستعرف المرحلة العسكرية تطورا جديدا و بالفعل بدأ غورو الإعداد لتنظيم عملية السيطرة حيث استطاع مستفيدا من وجود وزير المستعمرات الفرنسي بدكار السيد ميكييه لاكرو (M.Millier Lacroix) الحصول على الإذن ببدء تنظيم حملته لإخضاع منطقة آدرار و إكمال المشروع الاستعماري الفرنسي في الأراضي الموريتانية.

الخاتمة

لقد كان للسباق المحموم بين الدول الأوربية الاستعمارية منذ نهاية الحروب النابولينية وما انجر عنه من إحكام السيطرة علي أجزاء كبيرة من العالم بما في ذلك القارة الإفريقية، السبب المباشر لمشروع احتلال موريتانيا من طرف السلطات الفرنسية ممثلة في شخص كبولاني علي البلاد الموريتانية منذ بداية القرن العشرين ، وذلك باعتبارها همزة وصل بين المستعمرات الفرنسية الجنوبية (دول إفريقيا الغربية الفرنسية)، والمستعمرات الشمالية (الجزائر تونس المغرب) .

الهوامش:

[1] – سعد خليل ، تكوين موريتانيا الحديثة ، رسالة ماجستير ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، 1977م ، ص233.

[2] – محمد عبد الرحمن ولد عمار وآخرون ، تاريخ موريتانيا (فصول و معالجات ، نواكشوط، 1999م، ص 175.

3 – محمد الراظي ولد صدفن، السياسة الاستعمارية في موريتانيا وأثرها على الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية ، نواكشوط، 1995م، صص 54–55.

4 – يتعلق الأمر بقبائل أولاد اديم و أرقيبات في الصحراء الغربية، ومشظوف البرابيش في الشرق .

5 – محمد المختار ولد سيد محمد ، المجتمع والسلطة في موريتانيا ، المطبعة الجامعية ، 2013م ، صص 13–14.

6 – الهام محمد علي ذهني ، جهاد الممالك الإسلامية ضد الاستعمار الفرنسي 1850– 1914م ، دار المريخ ، الرياض 1988م ، ص195.

7 – محمد عبد الرحمن ولد عمار وآخرون ، مرجع سابق ، ص 178–179

8 – محمد الراظي ولد الصدفن وآخرون ، تاريخ موريتانيا (فصول و معالجات)، نواكشوط، 1999م، ص206.

9 – محمد الراظي ولد صدفن ، السياسة الاستعمارية ، مرجع سابق، ص56.

10 – المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، الجمهورية الإسلامية الموريتانية دراسة مسحية شاملة ، القاهرة 1978م ، ص43.

11 – بابا بن الشيخ سيديا ، رسالة موجهة إلى كافة الموريتانيين يشرح فيها موقفه من دخول النصارى، مخطوط، دار الثقافة، نواكشوط.

12 – بابا بن الشيخ سيديا المصدر نفسه.

13 – الشيخ سعد بوه ولد الشيخ محمد فاضل ، النصيحة العامة والخاصة في محاربة الفرانصة ،مخطوط ، دار الثقافة ، نواكشوط .

14 – محمد الراظي ولد صدفن وآخرون ، مرجع سابق، ص212.

15 – نفس المرجع ، ص212.

16 – للإطلاع أكثر : انظر الشيخ ماء العينين ولد الشيخ محمد فاضل ، هداية من حارى في أمر النصارى ، مخطوط ، دار الثقافة ، نواكشوط.

17 – محمد الراظي ولد صدفن، مرجع سابق، ص209.

18 – محمد الراظي ولد الصدفن، السياسة الاستعمارية وأثرها على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية ، مرجع سابق، ص61.

19 – محمد الراظي ولد صدفن مرجع سابق ، ص67.

20 – الخليل ولد النحوي ، بلاد شنقيط .المنارة والرباط ، تونس ، 1987م ، ص335.

21 - Gillier: la pénétration en Mauritanie, P136.

22 - Gillier : op.cit.P136.

23 - Gillier : op.cit.P137.